من أوراق الرئيس (49)

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة!

الإنجليز والعرش.. والسلطة بأي ثمن ...!

لسببين كان لابد من أن نعود إلي "أوراق " الرئيس السادات، وننقل صفحات مبكرة منها..

السبب الأول أن مسار أوراق الرئيس السادات كان يمشي خطوة خطوة مع تطور الوسطات بين مصر وليبيا. وأنها قد بلغت مرحلة يحسن السكوت عندها.. لأنه يحسن الوقوف عندها حتي تتوالي خطواتها وتتوحد مقاصدها لصالح العائلة العربية. وسوف نتوقف علي وعد بأن نعود إلي مسار "الأوراق" إذا ما حدث شئ جديد يصارح به الرئيس السادات أبناء مصر والأمة العربية.. فقد عودنا أن يكون صريحا واضحا. فالأمر لا يعني شخصيه، وإنما يعني الملايين من أبناء مصر وليبيا والأمة العربية.. والخلاف كان وما يزال وسوف يبقي عربيا – وليس مصريا ليبيا فقط..

والسبب الثاني هو أن صورة ظهرت فجأة في العالم كله للأمير فؤاد الذي كان ملكا علي مصر مع مجلس وصاية بعد طرد والده. هذه الصورة أعادت إلي أذهاننا ما كان من أمر هذا الأمير الذي قدمه أبوه وهو في اليوم العشر من عمره إلي قوات من الجيش والبوليس يوم كانت القاهرة تحترق يوم 26 يناير سنة 1952، ويوم كان وزير الداخلية يسجل شراء عمارة ضخمة فخمة.. هذه الصورة بما لها من معني، وما لها من علاقة بوثيقة تنازل الملك فاروق التي كتبها أنور السادات بخط يده ، وأعطاها لعلي ماهر ليقدمها للملك ، وكانت لحظة تساوي العمر كله.. لحظة انتصار لعلي ماهر علي خصمه أحمد حسنين باشا والملك فاروق أيضا.. هذه اللحظة أسعدت علي ماهر والضباط الأحرار ومصر كلها..

إنها لحظة مليئة بالمعاني. ففي هذه اللحظة خرج فاروق وأصبح أحمد فؤاد صاحب الصورة التي نشرناها في الأسبوع الماضي في هذا المكان ، ملكا علي مصر. ولكن هذا العرش الفاسد قد انتهي، وسلمت مصائر الشعب لأبنائه.. فتوقف الطابور الطويل لأصحاب العزة والسعادة والمعالي والرفعة! وكان من الضروري أن نعود إلي أوراق الرئيس السادات نقلب في تأملاته التي ركزها بلا تفاصيل.. فالتفاصيل معروفة..

وقد أطلق الرئيس السادات علي هذه الصفحات المنكرة من أوراقه أنها "تأصيل بلا تفصيل" علي أمل أن يعود إلي إضافة صفحات إليها، إذا اتسع وقته..

غير أن "نظم" هذه الأحداث وترتيبها وتفسيرها وربطها أمامه هو الذي له معني.. وهو الذي يجعل من الضروري أن ننقلها : صورة أمام الشباب الذين ولدوا كلهم بعد ثورة سنة 1952- هكذا تقول أحداث الاحصائيات الرسمية في مصر.. عادتي أن أقوم بتبسيط الأشياء لنفسي، لكي أراها أوضح. فإذا رأيتها، كنت قادر علي أن أنقلها للآخرين.. أي أنه شرط أساسي لكي أكون فاهما لأية مشكلة..

وكما ذكرت كثيرا، فقد تنبهت للأمور السياسية في سن مبكرة. فقد كنت أقرأ عن السياسة وأنا ما أزال في العاشرة، ثم استغلت بالسياسة وأنا ما أزال في العشرين، وبعد ذلك ساهمت في السياسة وصنعها.. وفي جميع هذه المراحل كنت أقرأ وأجمع المعلومات وأحشد نفسي.. ولقد أعجبني تعبير جميل يطلقه الباحثون العرب القدماء علي أنفسهم. فلا يكاد الواحد منهم يتهيأ لتأليف كتاب أو بحث موضوع حتي يقول عن نفسه: لقد احتشدت له..

أي حشد كل قواته، كأنه جيش مقدم علي معركة.. ورأي أن هذا التعبير دقيق . وأعتقد أنني – لا شعوريا – كنت أحتشد لشئ ما لا أعرفة.. المهم أنني – لا شعوريا – كنت أحتشد لشئ ما لا أعرفه.. المهم أنني كنت حريصا علي أن أفهم ما يجري حولي من الأحداث التي أقرأ عنها، وأري صداها في الشارع وفي المقاهي والبيوت والمدارس والمظاهرات، وأعتقد أنه جاء وقت كنت أثور وأهتف وتمتد يدي إلي الطوب في الشوارع، دون أن أعرف بوضوح ما هذا الذي أثور ضده. وكل ما أعرفه في شبابي المبكر جدا أنني ضد الانجليز.. وبعد ذلك كنت ضد من يقف مع الانجليز أو يقف معه الانجليز.. أي ضد كل من يريد أن يكون للانجليز وجود في مصر..

ودون أن ادخل نفسي في تفاصيل كثيرة، وكلها معروفة عند كل المواطنين في مثل سني. فقد كانت الصورة التي بسطتها لنفسي واضحة: أن قوة الجذب في مصر وفي العشرينات والثلاثينات، من بعد ثورة 1919 مباشرة، كانت الإنجليز. هم القوة الحقيقة. وهم مصدر القوة الشرعية في مصر، فالذي يريد أن يحكم لابد أن يقترب منهم فإذا فعل فقد دانت له الدنيا واتسعت له مقاعد الحكم. وأمام الانجليز، علي وفاق دائما.. وإذا اتفق الطرفان فضد الشعب. أية مطالب أو تكون له حقوق..

وبين الانجليز والملك توجد الأحزاب.. حزب الأغلبية وأحزاب الأقلية.. أما الأغلبية فكانت تقف ضد الملك أحيانا، وأكثر الأحيان مع الانجليز. ولذلك لم يكن الملك يجد أمامه إلا أحزاب الأقلية. فلأن هذه الأحزاب تفتقر إلي القوة الجماهيرية، فغن الملك يسندنا ويعطيها ما ليس لها وما لا تستحق..

واستمرار في تبسيط الأمور أيضا، كان الانجليز في الثلاثينات – بصفة خاصة – قد أعلنوا سياسة الحياد.. أي سياسة التفرج علي ما يجري في مصر دون أن يتدخلوا في شئ.. والذي

يجري في مصر هو: الأحزاب تقف مع الملك أو ضده.. أو تقف مع الانجليز أو ضدهم.. وكانت بريطانيا تعلن أنها لا تتدخل في شئون مصر: لا في شئون الأحزاب ولا سلطات الملك ولا تفرض علي الشعب المصري ما لا يريد..

والحقيقة غير ذلك تماما. فالانجليز هم أصحاب سياسة: فرق تسد.. أي التفريق بين الناس أو بين الطبقات أو بين السلطات، وتمزيق الشعب ليصبحوا قادرين بعد ذلك علي أن يسودوا.. وقد سادوا عشرات السنين، وفي بلاد كثيرة..

ووزير خارجية بريطانيا صمويل هور، هو الذي قال عن موقفه من التغيرات الدستورية في مصر: إنهم استشارونا فنصحناهم!

وكان يدفع عن نفسه وعن حكومته أنه يتدخل في تعديل الدستور المصري. وهو لم يزد علي تكرار السياسة البريطانية المزعومة. والحقيقة أنهم لم يستشيروا بريطانيا فنصحتهم. وإنما هم أخبروها فأمرتهم..

وأذكر أن الناس في مصر قد أعجبهم وبهرتهم فكرة الحياد.. أو الحيدة البريطانية. فلما اكتشفوا بعد ذلك أن بريطانيا لم تكن قط علي الحياد، أزعجهم ذلك أن بريطانيا لم تكن قط علي الحياد، أزعجهم ذلك. وصدموا.. وهذه الصدمة – في ذاتها – تدل علي طيبة الناس وسذاجتهم. إذا كيف يخطر لهم ببال أن بريطانيا لا تكذب. بل إن شاعرنا حافظ إبراهيم قد نظم عددا كبيرا من القصائد. وكلها ذات معني واحدا: أن بريطانيا خدعتنا فكذبت علينا. وأنها ليست محايدة مطلقا: كشفنا عن نواياكم فلستم وقد برح الخفاء محايدينا ضربتم حول قادتنا نطاقا من النيران يعي الدارعينا ثم يتوعدهم حافظ إبراهيم بمصير نابليون ونفيه في جزيرة سانت هيلانة، ويكرر المعني مع هذه الدهشة البريئة من أنهم يكذبون:

أمحايد أم حائد	عن منهج الحق المبين
نازلت شعبا أعزلا	بمدرعين مدججين
وأمنت عقبي الظالمين	ولبئس عقبي الظالمين
إنا بجبار السماء	وبالعقيدة نستعين
أأمنتمو صرف الزمان ،	وفتكه بالغاشمين
كم من قوة هده	كيد الضعف المستكين
أو لم تروا ما ذاقه	بالأمس ذياك السجين
في "سنت هيلين" قضي	من دوخ الدنيا سنين
من كان في غاراته	في الكون منقطع القرين
أمسي ألانته الخطوب،	وكان صلبا لا يلين
أو تتقون مصيره	أم لستمو بالمتقين

وحافظ إبراهيم نسي أن الانجليز هم الذين نفو نابليون..ولكنه– وبكل طيبة وبراءة – يدعو عليهم بأن يلقوا نفس المصير ! ويقول أيضا:

قل للمحايد هل شهدت دماءنا		تجري وهل بعد الدماء سلام

سفكت مودتنا لكم وبدالنا		أن الحياد علي الخصام لثام

لم يبقي فينا من يمني نفسه		بودادكم فودادكم أحلام

وهو في البيت الأخير بعيد عن حقيقة ما يجري في مصر.. فهناك كثيرون يحلمون لا بمودة بريطانيا ، وإنما بما دون ذلك بكثير جدا..

فقد كانم موظف صغير في السفارة البريطانية هو أمل السياسيين في مصر موظف صغير اسمه مستر سمارت، يعمل سكرتيرا شرقيا. وكان لقاء مستر سمارت هذا مني أمل الزعماء السياسيين في مصر. وكان يكفي جدا أن يبتسم لأحد أما إذا دعاه إلي الإفطار ، فقد انفتحت أبواب السماء.. أما إذا لمس كتفه أو ذراعه ونشرت الصحف ذلك فسوف يتلقي البرقيات وتنهال عليه التليفونات هكذا كانت تقول الصحف في ذلك الوقت. وفي 99% من مل هذه الحوادث السعيدة، يكون مصير الزعيم السياسي الذي نال الرضاء السامي أن يجئ وزيرا أو رئيسا للوزراء..

وكان الملم فؤاد وفاروق بعد ذلك، يتلقي يلتقي بالوزير أو برئيس الوزراء إذا كلفه بتشكيل الوزارة .طبيعي ولكن ليس من الضروري ؟أن يلتقي السفير البريطاني بواحد من هؤلاء. إنه كان يكتفي بأن يلقاهم السكرتير الشرقي !

وأخيرا يقول حافظ إبراهيم أيضا، وتنشر له الصحف ذلك ، بما يدل علي أنه يعبر عن الرأي العام في ذلك الوقت:

لقد طال "الحياد" ولم تكتفوا		أما أرضاكم ثمن الحياد؟

أخذتم كل ما تبغون منا		فما هذا التحكم في العباد

بلونا شدة منكم ولينا		فكان كلاهما ذر الرمـــــاد

وسالمتم وعاديتم زمانا		فلم يغن المسالم والمعادي

فليس وراءكم غير التجني		وليس أمامنا غير الجهاد

أما لعنات حافظ إبراهيم لإسماعيل صدقي الذي عطل الدستور وعادي الشعب واستكان للملك فهي شئ طريف يبعث علي الضحك ، يقول حافظ إبراهيم :

ودعا عليك الله في محرابه :		الشيخ والقسيس والحاخام !

وكان حافظ إبراهيم شاعرا طريفا ووطنيا مخلصا. ولكن إدراكه السياسي لم يتعد هذا الفهم البسيط لمبادئ السياسة في زمانه ، وللسياسة البريطانية بصفة خاصة.. أو لم يكن يعرف الخريطة السياسية في ذلك الوقت. ولكنه كان محبوبا وكان حديث الناس جميعا إذا أنشد قصيدة

أو إذا نشرتها له الصحف. وكنت ، مثل كثيرين ، أحفظ شعرة وأدونه.. ولكن كنت أري فيه نوعا من السلبية.ز لأنه فقط يستنكر ويتفرج. ومثل حافظ إبراهيم كثيرون أيضا. وفي هذه الظروف السياسية في مصر نجد أن للفرد دورا هاما.. أما الشعب فيجئ دوره متأخرا بضع خطوات. وكان الفرد في ذلك الوقت هو الملك أو هو السفير البريطاني أو الزعيم السياسي. ولذلك فمن الضروري أن التقت كثيرا وطويلا إلي هؤلاء الأفراد الذين أثروا في الحياة السياسية والاجتماعية في مصر. فمن المؤكد أن السفير البريطاني سير ما يلز لا مبسون – الذي أصبح بعد ذلك لورد كيلرن – كان له دور خطير وشرير في تسيير السياسة المصرية. وقد كافأه تشرشل علي ذلك بأن منحه لقب لورد.. هذا الرجل جاء من الصين. وقد أفلح في أن يعقد معاهدة بين الصين وبريطانيا. وكان نموذجا كاملا لرجل الإمبراطورية ، أو الرجل الاستعماري بمعني الكلمة.. وقد عاونه في صياغة السياسة المصرية الخارجية والداخلية والمعاهدات رجل اسمه مستر بكيت.. هذا الرجل كان أستاذا في صياغة المعاهدات ووضع التراكيب التي يحار العقل في تفسيرها وتبريرها وتعديلها.. أي أن مثل هذه الصياغة قادرة علي أن تجعل المفاوضات بشأنها مستمرة. وهذا يضمن للانجليز وجودا أطول وأعرض وأعمق.. وقد جاء السفير البريطاني لامبسون هذا في أوائل سنة 1934.. وكانت مصر قد شبعت غضبا وسخطا علي إسماعيل صدقي، وعلي دستور سنة 1930 الذي نسف دستور 1923.. ولذلك فإن إعادة دستور سنة 1923 بعد ذلك كان يعتبر خطوة صاعدة في طريق السيادة الوطنية في مصر..

ولكي يتدارك الانجليز الموقف في مصر، بعد الارتباك الذي أحدثه إسماعيل صدقي والعب بالدستور، أرسلوا مايلز لا مبسون ليعد لهم المعاهدة الجديدة التي تربط البلد بهم.. وفي ذلك الوقت كان حزب الوفد هو حزب الأغلبية. وكان في عنفوانه. ولم يكن قد بدأ ينزل عند رغبات الانجليز أو الملك، أو يتدحرج في التنازلات إلي غير نهاية.. فقد كان الوفد، ككل الأحزاب الأخرى، يري أن الانجليز هم مصدر السلطات..

ولم يدر ببال أحد في ذلك الوقت أن الانجليز يجب أن يخرجوا. وأن الملك يجب أن يذهب. وإنما الصيغة السياسية التي كان يجتهد الجميع في شرحها هي كيف يحققون نوعا من التوازن بين العرش والسفارة البريطانية.. وكان الانجليز يعرفون ذلك الوقت..

وكان الانجليز يعرفون ذلك بوضوح. ولكن تجاربهم السياسية الطويلة قد جعلتهم يفكرون في انتقاء رجالهم الواحد بعد الآخر..

ولابد أن المعاهدة التي عقدتها بريطانيا مع مصر ومع وزارة الأغلبية سوف تدخل تاريخنا السياسي من أبواب متعددة: فقد وصفها مصطفي النحاس باشا بأنها معاهدة الشرف والاستقلال. وقد شغل المؤرخون أنفسهم كثيرا بمدلولات الاستقلال والشرف في ذلك الوقت..

ولابد أنهم قد انتهوا إلي أن الشرف نسبي كالاستقلال تماما. ولكن الغلطة في مثل هذا التفسير أن الشرف ليس نسبيا كالاستقلال تماما. لأن الاستقلال معناه حرية الإرادة في اتخاذ القرار دون تدخل من أية قوة أجنبية. وأن هذا أيضا هو استقلال الإرادة..

ولكن أية قراءة جديدة لهذه المعاهدة تؤكد أن الانجليز باقون. صحيح أن فيها نصا يبعث علي الضحك. هذا النص يطلق حرية بريطانيا في أن تحلق في أجوائنا بطائرتها دفاعها عن مصر والقناة والطرق الإمبراطورية. ولما كانت مصر وبريطانيا دولتين مستقلتين. وكل منهما ند للأخرى فمن حق الطائرات المصرية أن تحلق في الأجواء البريطانية أيضا !.

وغلطة أحري خطيرة في مفهوم الاستقلال، هي أن بريطانيا هي التي تعطينا الاستقلال. أي أن الاستقلال منحة من بريطانيا، كما كان الدستور منحة من الملك !

فكل شئ يجئ من فوق .. الانجليز يعطوننا الاستقلال. وهذا فضل يضاف إلي فضل آخر هو أنهم كانوا يحكموننا ويتحكمون فينا ! وكان العني العام للسياسة البريطانية في ذلك الوقت: أنه يكفينا شرفا وفخرا أن الانجليز يحتلون أرضنا ويفكرون لنا.

ولكن الاستقلال لا يعطية أحد لنا. وإنما نحن الذين نأخذه بالقوة وبالدم. ومن أجل ذلك كان الفوز به شرفا. بل أكثر من الشرف. لأن الاستقلال حياة وكانت مثل هذه الحياة هي الكرامة المرادفة للحياة وكانت هذه المعاني هي التي تملأ رءوسنا ونحن صغار. ونحن شباب. ونحن رجال.. ومن أجلها هانت، وسوف تهون حياتنا !

ولما حصل مصطفي النحاس علي معاهدة الشرف رجع إلي مصر وأعلن في البرلمان هذا الانتصار العظيم ، وهاجم بعنف كل الذين هاجموه.

وهنا يجب أن يلتفت السياسيون والمؤرخون أيضا إلي الأفراد الذين أثروا في مسار الأحداث في ذلك الوقت. ولابد أن يجئ الملك أحمد فؤاد في مقدمة هؤلاء فكما ذكرت ، كان واضحا لنا ونحن شبان صغار رجال بعد ذلك : أن قطبي السياسة في مصر هما السفير البريطاني والملك..

وقد وضعت بذور لمشاكل كثيرة في تاريخ مصر في عهد الملك فؤاد. الذي حكم حوالي 19 عاما من سنة 1917 حي سنة 1936. وهو الابن السادس للخديوي إسماعيل. وقد تعلم الملك فؤاد في مدارس إيطاليا والتحق بكلياتها العسكرية. ودخل الجيش الايطالي في سلاح المدفعية، ثم كان لابد أن يسافر إلي تركيا ليكمل تعليمه أو تربيته السياسية والعسكرية هناك أيضا. ومن الطبيعي أن يعرف السلطان ورجال البلاط. وقدمه أبوه الخديوي إسماعيل إلي السلطان عبد الحميد. وقد عينه السلطان سفيرا له في النمسا وبقي هناك سنتين.

ولما عزل أبوه الخديوي إسماعيل ، وجاء الخديوي عباس الثاني ليجلس علي عرش مصر سنة 1892 استدعاه وعينه كبيرا للبارون. فالملك فؤاد – إذن – رجل علي قدر كبير من

الثقافة والتجربة السياسية. وقد تزوج مرتين. في المرة الأولي تزوج الأميرة شيوه كار إبراهيم ، ابنها الأمير إبراهيم أحد أحفاد إبراهيم باشا الكبير.. وطلقها بعد أن اعتدي عليه أخوها.. وكان مجنونا وأدخلوه مستشفي الأمراض العقلية في انجلترا وظل به 27 عاما ثم هرب منه بعد ذلك. ولما ولي عرش مصر تزوج نازلي بنت عبد الرحيم باشا صبري ، وفي سنة 1920 أنجبت له فاروق والأميرات فوزية وفايزة وفائقة وفتحية.

وعلي الرغم من المزايا الشخصية الفكرية للملك فؤاد ، فقد كانت أمامه تحديات كثيرة من الانجليز والباشوات والحاشية والأحزاب والشعب.. ثم إنه أولا وأخيرا حاكم يريد أن يكون مطلقا. وهناك كثيرون قد شجعوه علي ذلك..

أما كيف تولي فؤاد الحكم فقد كان ذلك في نفس اليوم الذي توفي فيه السلطات حسين كامل في 9 أكتوبر سنة 1917. فقد أبلغه الانجليز: "أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تعرض علي عظمتكم تبوء هذا العرش السامي، علي أن يكون لورثتكم من بعدكم حسب النظام الوراثي الذي سيوضع بالاتفاق بين حكومة صاحب الجلالة البريطانية وبين عظمتكم".

أي أن الحكومة البريطانية ، وبمنتهي البساطة والوضوح ، هي مصدر ولاية العرش. وضاق الناس بتعيين الانجليز للسلطان فؤاد علي عرش مصر..

ولم يكن فؤاد يجد حرجا في أن يعينه الانجليز. المهم أن يتربع أو ينام علي العرش ، وابنه من بعده. ولذلك فقد أعلن في أول خطاب بعث به إلي حسين رشدي رئيس الوزراء: "إنه بسبب وفاة سلفنا وأخينا المحبوب المغفور له السلطان حسين الأول.. قد تولينا بالاتفاق مع الدولة الحامية عرش السلطنة المصرية ، علي أن يكون هذا العرش من بعدنا لورثتنا طبقا للنظام الوراثي الذي سيوضع بالاتفاق بيننا وبين حكومة صاحب الجلالة البريطانية.."

وظل السلطان فؤاد ، أو الملك فؤاد بعد ذلك ، مخلصا للدولة التي عينته والتي حمته – وإن لم يكن مخلصا تماما فقد كان ضعيفا أمامها. وكان إذا وقف إلي جانب الشعب فلكي يضايق الحكومة البريطانية.. ولكن عندما كان يقف مع الشعب في صياغته للدستور أو عودته ، كان يقصد مسايرة التيار العام ، وأن يستعين بأحد أو بأية قوة أخري ضد الانجليز.. ولكنه – كالانجليز تماما لا يريد للشعب أن يقف علي قدميه..

أما سنوات حكم فؤاد فقد شهدت كل المحاولات الشعبية والجهات من أجل الشرعية الوطنية والدستورية .. وفي نفس الوقت ظهرت كل أساليب القمع والردع.. وكل محاولات القضاء علي الروح المصرية الثورية..

وإذا كانت في هذه المرحلة " جواهر كثيرة ، ففيها "وحل" كثير أيضا.. وفيها هوان من حزب الأغلبية وباشواته أيضا وفيها رقاب انكسرت علي يدي الجالس علي العرش.. وفيها ظهور تقوست أمام موظف صغير في السفارة البريطانية. وفيها أكبر غلطة في فهم الاستقلال وأبشع

غلطة في أن يتصور الناس لأن السفارة البريطانية بديهة باقية.. وأن الجالس علي العرش مهما كان فاسدا فو كالسفارة البريطانية باق إلي الأبد..

وقد انتقل الصراع علي أيام فؤاد لينمو ويزدهر في عصر ابنه الطفل الملك فاروق الذي ولي العرش ولم يبلغ السابعة عشرة من عمره..

وإذا كان فؤاد صاحب ثقافة وتجربة ، فقد جاء بلا ثقافة ولا تجربة.. وإذا كان فؤاد في حجم العرش الذي جلس عليه فقد جاء فاروق أصغر من العرش .. ولأنه صغير الذين حوله كبار أشرار، فقد تعقد والتوي حتى سقط وسقطوا !